(1) الحياة والشخصية

يعد ديفيد هيوم – فى حدود ما لدى من معرفة – أعظم الفلاسفة الإنجليز ، ولد فى يوم 26 إبريل عام 1711 بمدينة أدنبره ، وفى خطية الوداع التى وضع عنواناً لها وهو (حياتى) أدلى ديفيد هيوم بسيرته الذاتية التى احتوتها خمس صفحات فقط فى شهر إبريل عام 1776 أى قبيل وفاته بأربعة أشهر – يفتخر ديفيد لكونه ينتمى لعائلة عريقة من كلا الطرفين ، فأبوه هو جوسيف هوم Joseph Home كان يجمع بين مهنة القانون وإدارته لضيعة يملكها فى مدينة نانيويلس Ninewells فى بيرويكشاير والتى كانت تنسب للعائلة منذ القرن السادس عشر ، فالعائلة – كما أشار هيوم – فرع من إيرل Earl هوم Home أو هيوم Hume (D 233) والذى يعادل فى وقتنا الحالى منصب رئيس الوزراء ذى الاتجاه المحافظ Conservative ، وأمه (كاثرين) كانت ابنة السير ديفيد فالكونير – رئيس كلية العدل – وأحد أخواتها ورث لقب نبيل – الزوجان لديهما ثلاثة أطفال أصغرهم ديفيد وأخوه جون ولد عام 1709 وأخته كاثرين تكبره بعام واحد . توفى جوسيف هوم عام 1713 بينما كان ديفيد مازال طفلاً وانتقلت الضيعة للابن الأكبر ، وورث ديفيد مبلغ خمسين جنيهاً سنوياً والتى كانت لا تكفى حتى فى تلك الأيام لجعله مستقلاً مادياً ، خطط ديفيد من أجل أن يحذو حذو أبيه ويعمل محامياً ، وبالنسبة لأمه فهى لم تتزوج، وفى الواقع هى التى أدارت الضيعة حتى كبر جون واستطاع

obeikandi.com

تحمل عبء إدارتها ، بكل المقاييس ، تُعتبر كرست نفسها لديفيد وأخيه وأخته ، وكانت متعصبة لمذهب كالفن اللاهوتى Calvinist الفرنسى(*) ، والذى رفضه هيوم ، بالإضافة إلى جميع المذاهب المسيحية الأخرى فى فترة مراهقته ، لم يفسد ذلك علاقته بأمه ، فقد ارتأى أن يخفيه عنها أو على الأقل لا يصرح به أمامها ، وكان هيوم طوال حياته يتسم بأنه ذات نزعة غير عدوانية ومسالمة وكان يكره الاختلاط بالعامة من الناس ، بالإضافة إلى أنه كان يتمتع بالجدل الخاص ، وعلى الرغم من تحليه بشجاعة مبادئه ، فقد كان يرفض التعبير عنها بواسطة الطباعة ، كانت أمه تقول عنه "إن ديفيد شخص طيب ولكنه يقظ البديهة ، إلا أن هذا الرأى لا يدعمه أى دليل وثائقى ، فحتى لو كان هذا الرأى صحيحاً ، فربما يكون تعبيراً عن الشعور بالغضب مرده أن هيوم فى هذا الوقت قد أصبح مستقلاً من الناحية المادية عن ضيعة العائلة .

فى عام 1723 لم يكن ديفيد هيوم قد بلغ الثانية عشرة من عمره ، إلا أنه ذهب مع أخيه الأكبر إلى جامعة أدنبره ، وقد أمضيا فيها أروع ثلاثة أعوام ، دون أن يحصلا على شهادة وكان ذلك شائعاً فى ذلك الوقت ، لقد درسا الفن والأدب الإغريقى والمنطق والميتافيزيقا والفلسفة الطبيعية والتى تُعرف الآن بالفيزياء ، كانت هذه مواد إجبارية ، وكان

(*) يرى كالفين – اللاهوتى الفرنسى البروتستنتى – 1509–1564 – أن قدر الإنسان مرسوم بدقة قبل ولادته (المترجم) .

obeikandl.com

هنـاك مـواد اختياريـة كـالأخلاق والرياضـيات ، ويبـدو أن مسـتوى المحاضرات كان بدائياً ، ولكن ديفيد اكتسب معرفة فى هذه المرحلة أظهرت العمل الخلاق الذى أبدعه إسحاق نيوتن وجون لوك ، وكل ما قاله ديفيد عن الدراسة الجامعية ، أنه اجتاز فترة الدراسة بنجاح ، عندما عاد ديفيد إلى مدينة نانيويلس حاول أن يستقر على دراسة القانون، ولكن سرعان ما كف عن الاستمرار فى هذه المحاولة ، لقد أشار فى سيرته الذاتية إلى أن ولعه بالأدب كالتاريخ والفلسفة هو العاطفة المحركة لحياته والمصدر الرئيس لسعادته ، ورأيه هذا يثبت بقوة أنه يكره أى شئ ليس له علاقة بالفلسفة والتعليم العام (D 233)، وعلى الرغم من أن هيوم كان يشير إلى شيشرون وفيرجيل كمفكرين إلا أنه كان يمقتهما سراً بسبب أرائهما فى التشريع فى حين أن عائلته كانت تعتقد أنه يدرس أعمالهما – لقد كانت أفكاره منصبة بصورة رئيسة على الفلسفة وظهر هذا واضحاً فى عام 1729 – وكان قد بلغ وقتها ثمانية عشر عاماً ، وهذا التوجه فتح له مجالاً جديداً وبرز ذلك فى كتابه الشهير الأول (رسالة فى الطبيعة البشرية) ، لقد أفضى ما أثاره هذا المُؤلف من أفكار والحدة التى كان يعمل بها من أجل إنجازه إلى إصابته باضطراب نفسى وضعف فى بنيته البدنية مما استلزم إخضاعه للعلاج الطبى ، وبعد فترة من العلاج المنتظم المشتمل على نظام غذائى ملائم ، تحول خلال سنتين من شاب طويل نحيل وضعيف البنية إلى شاب قوى ، نشيط ، ثابت لا يعرف الاستسلام،

فأصبح متورد البشرة ويتمتع بهدوء مبهج ، وعلى الرغم من هذا التحول ظل ينتابه نوبات من الاكتئاب تصاحبها أعراض وعلامات دالة على وجود خفقان سريع وغير منتظم Palpitation للقلب ، وقد فشل الأطباء المحليون الذين لجأ إليهم فى علاجه ، لذلك وجد أنه من الأفضل أن يتوقف لفترة عن البحث والدراسة كى يسترد صحته ونشاطه ، وفى فبراير عام 1734 غادر اسكتلندا إلى بريستول حيث أمكنه الحصول على وظيفة فى شركة لتجارة السكر ، وقراره هذا نجم عنه بعض المشاكل التى لم يكن يتوقع حدوثها ، فقد طلبت خادمة من المحكمة الكنسية استدعاءه ليشهد أن عمه هو والد ابنها غير الشرعى ، ولكن لم يكن ثمة مسئولية تقع على كاهله ، لم تؤثر هذه الواقعة على سمعته ، ولكنه كان يدرك أن هناك دليلاً يجعله يشك فى صحة دعوى هذه المرأة ، وعلى الرغم من أنه لم يسبق له الزواج وهادئ الطبع ومنغمس فى مطاردات عقلانية ، فهو مؤهل لأن يكون زير نساء ، وعلى الرغم من أنه كون صداقات جيدة فى مدينة بريستول فلم يلبث بعد مرور أربعة أشهر فقط أن اتخذ قراراً بترك العمل فى مجال التجارة حيث أنها لا تناسبه ، لقد طُرد من وظيفته لإصراره على نقد الأسلوب والألفاظ التى استخدمها صاحب العمل فى تعبيراته (M90) ، وسواء أكان ذلك صحيحاً أم لا ، فقد كان هيوم سعيداً لأنه أصبح متفرغاً لدراسة الفلسفة ، ولقد تغيرت حروف اسمه من هوم Home إلى هيوم

وكان ذلك نتيجة لإقامته فى بريستول كى تتوافق مع طريقة النطق السائدة فيها .

صمم ديفيد هيوم على أن يكرس نفسه لكتابة مؤلفه (رسالة فى الطبيعة البشرية) ، لذلك رحل إلى فرنسا حيث يمكن أن يدير شئونه على نحو أفضل دون أن يتجاوز حدود دخله الضئيل ، وبعد فترة قصيرة من إقامته فى باريس استطاع الحصول على بعض المقدمات والتعريفات المفيدة من شخص اسكتلندى يدعى شيفالر رامسى Chevalier Ramsay ، قضى ديفيد هيوم عاماً فى مدينة ريميس Rheims وقضى عامين فى مدينة لافلش فى أنجو Anjou – وفى الكلية اليسوعية التى درس فيها ديكارت واستطاع تكوين صدقات مع الآباء اليسوعين واستفاد من مكتبتهم الشاسعة – وفى خريف عام 1737 أنجز الجزء الأكبر من مؤلفه ، ثم عاد إلى لندن من اجل أن يجد ناشراً لكتابه ، إلا أن تحقيق هذا الأمل لم يكن سهلاً ، فقد مر عام قبل أن ينجح فى عمل عقد مع جون نون لنشر ألف نسخة لكتابيه الفهم والعواطف ، وحصل ديفيد على مبلغ خمسين جنيهاً بالإضافة إلى اثنتا عشرة نسخة مجلدة تجليداً متميزاً ، وقد نشر هذا المؤلف تحت اسم مستعار بسعر عشرة شلنات فى شهر يناير عام 1739 بعنوان : رسالة فى الفهم الإنسانى : محاولة لتقديم منهج تجريبى للاستدلال والبحث فى المسائل الأخلاقية والكتاب الثالث (فى الأخلاق) لم يكن قد تم إعداده للنشر ، وقد تأخر ظهوره حتى شهر نوفمبر عام 1740 عندما نشره

مارك لونج مان بسعر أربعة شلنات ، إلا أن مؤلفه (رسالة فى الفهم الإنسانى) لم يحظ بأى قبول مما أصابه بخيبة أمل إلى حد بعيد ، وقد عبر عن ذلك بقوله : ليس هناك محاولة أدبية أسوأ حظاً من مؤلفى (رسالة) . ولم تلق هذه المحاولة أى قبول من الصحافة ، كما أنها أثارت التذمر بين المتعصبين Zealots (D234) . إلا أن ذلك لم يكن دقيقاً تماماً ، فقد تبين لى بعد البحث والاستقصاء أن النسخ التى نشرها – نون Noon – تم بيعها فى حياة هيوم ، وأن هذا الكتاب كان موضع اهتمام فى الصحف الإنجليزية والأجنبية ، ونال ثلاث مراجعات وفحوص طويلة ، المشكلة أن نغمة المراجعات النقدية كانت تسودها العدائية والازدراء ، واعتقد هيوم أن هذه العدائية نشأت عن عدم فهم أرائه وقرر معالجة ذلك بنشر كتيب باسم مستعار بسعر ست بنسات وتم الإعلان عنه بوصفه (تجريد) للأداء الفلسفى الأخير بعنوان (رسالة فى الطبيعة البشرية) وبينما كان الجدال الرئيس وتخطيط هذا الكتاب قد واجهه هذا الاعتراض والذى يتمثل فى ضوء مرعب تم شرحه وظهوره تحت عنوان أقل عدوانية فى تجريد لكتاب تم نشره مؤخراً بعنوان (رسالة فى الطبيعة البشرية) - لقد تم نسيان هذا الكتيب حتى عثر ماينارد كينز Maynard Keynes على نسخة منه قبل نهاية عام 1930 ونشره بعد أن وضع مقدمة له بالإضافة إلى المقدمة التى كتبها بيرو سرافا Piero Sraffa تحت عنوان تجريد رسالة فى الطبيعة البشرية عام 1740 ، هذا (التجريد) يلفت الانتباه على نحو خاص إلى نظرية

هيوم فى السببية والتى كانت بالفعل سمة للرسالة والتى أصبحت الآن أكثر ذيوعاً ، لقد اعتقد هيوم أنه مسئول – إلى حد بعيد – عن فشل مؤلفه (رسالة) – وذلك لإخفاقه فى تقديمه وكان يميل إلى التبرأ منه .

الإشارة الأولى لذلك توجد فى مقدمة المجلد الأول من المجلدين اللذين تضمنا (مقالات أخلاقية وسياسية) واللذين نشرا فى عامى 1741، 1742 باسم مستعار (مُؤلف جديد)– السبع وعشرون مقالة التى جلبها ونشرها أندرو كينكايد Andrew Kincaid فى أدنبره – تتصف بأنها ذات درجات متنوعة من الجدية Seriousness وكانت تغطى نطاقاً واسعاً من الموضوعات ، حيث اشتملت على النقد والأخلاق والفلسفة السياسية .

لاقت هذه المقالات قبولاً عظيماً خاصة المقالات السياسية التى ناقشت موضوع (حرية الصحافة) و(المبادئ الأساسية بشأن الحكومة) .

أثارت شخصية السير روبرت والبول اهتماماً خاصاً لكونه ذات تصميم أكثر صرامة من هيوم ، أراد أن يدعمه عندما طُرد هذا الرجل من السلطة – فلهذا السبب – دون أدنى شك – لم يُعد طبع المقالة بنسخ أخرى ، كما حذف بعض المقالات الأخرى مثل (الحب والزواج) و(الوقاحة والحياء) Impudence and Modesty .

إن نشر هذه المقالات ليس فقط جعلت هيوم يحصد بعض المال مقداره مائتى جنية تقريباً ، ولكن أهلته أيضاً لأن يكون مرشحاً

لدرجة أستاذ فى فلسفة الأخلاق والفلسفة اللاهوتية فى جامعة أدنبره ، وقد رشحه لهذا المنصب صديقه اللورد جون كوتس رئيس إدنبره بعد أن غادر اليكسندر برينجل هذا المنصب فى سنة 1742 ليعمل خارج حدود الدولة كطبيب فى الجيش ، فعمله كطبيب عام فى قوات فلاندرس لم يتوافق مع بقائه كأستاذ فى جامعة أدنبره – وهكذا – فإن اختيار هيوم كخليفة له لم يواجه باعتراض من مجلس المدينة ، ولسوء الحظ أجّل برينجل تقاعده حتى يوقف كوتس عن الاستمرار فى رئاسة إدنبره ، وحتى يعطى الوقت الكافى للمتعصبين الذين يعارضون آراء هيوم لتجميع صفوفهم .

نشر هيوم كتيباً تحت اسم مستعار عام 1745 بعنوان (خطاب من رجل دمث الطباع إلى صديقه فى أدنبره) منكراً أنه قد رفض تفسير الافتراض المتضمن بأن (أى شئ ينشأ فى الوجود لابد أن يكون له سبب كما رفض اتهامه بان الجدال الذى تضمنته (رسالته) قد أفضى بطريقة أخرى إلى الإلحاد Atheism ، لقد فشل فى تهدئة المعارضين له – وفى العام نفسه عُرض المنصب على صديق هيوم – فرنسيس هيتشون Fransesn Hutcheson الذى كان يشغل وظيفة أستاذ الفلسفة الأخلاقية فى جامعة جلاسجو ، إلا أن هيتشون رفضه بأسلوب مهذب ، لذا قرر المجلس تأييد المحاضر الذى كان يقوم بعمل (برينجل) .

ولما كان هيوم يفتقر إلى الأمان المادى لضآلة مرتب الوظيفة ، لذلك قبل عرض بمبلغ ثلاثمائة جنيه سنوياً ليعمل كمعلم – لماركويس

أنانـدال – وهـو شـاب (ينتمـى إلى طبقـة النـبلاء) غريـب الأطـوار Eccentric (كان يعيش فى حى القديس البان على مقربة من لندن) وسرعان ما تبين لهيوم أنه شاب مجنون Insane ، وعلى الرغم من أوهام هذا الشاب وإرادته المريضة التى جعلته عضواً مؤثراً فى أسرته ، فقد كان هيوم قانعاً بهذا الوظيفة مقابل هذا المبلغ الضئيل ، ومما لاشك فيه أن ذلك أعطاه وقت فراغ للكتابة ، فقد بدأ بالفعل فى العمل فى مقالاته الفلسفية فى الفهم الإنسانى ، والتى أسماها (بحث فى الفهم الإنسانى) ليحل محل كتابه الأول (رسالة) ، والمرجح أنه كتب أيضاً مقالاته الثلاث (الأخلاقية والسياسية) ، تم نشر العملين فى عام 1748.

وفى الحقيقة أن مؤلفه (بحث) – كتب بطريقة أكثر وضوحاً من مؤلفه (رسالة) حيث كان أكثر تحليلاً وتحديداً لآرائه (فى كتابه الأخير) أكثر من الجدال الذى غلب على كتابه (الرسالة) ، كانت نقطة النقاش الرئيسة التى أثارها فى مقدمة كتابه (بحث) هى السببية، والتى يفترض الآن أنها أقل تعويقاً لعلم النفس – هناك ثلاثة أقسام فى الرسالة – لا نظير لها – تفحص مفهوم المكان والزمان ، ومن جانب آخر ، تشتمل على فصل بعنوان (فى المعجزات) Miracles ، والذى كان هيوم قد حذفه من الرسالة دون تدبر ، والجدل الرئيس فى هذا الفصل فحواه : أنه لا يوجد دليل Testimony ، كاف على حدوث معجزة ، إلا ذلك الدليل الذى إذا بُرهن على كذبه Falsehood

كان فى حد ذاته أكثر إعجازاً من الحادث الذى يحاول أن يثبته (E 115-16) .

حقق هيوم فى هذا العمل الفلسفى المجرد والذى تضمن هجوماً على المؤسسات التقليدية – شهرة بين معاصريه أكثر من أى عمل آخر ، ظهرت مقالات هيوم الثلاثة (الأخلاقية والسياسية) فى شهر فبراير عام 1748 فى أولى كتبه التى وضع عليها اسمه والتى كانت منذ ذلك الحين بداية استمر عليها ، ثار الشباب معلنيّن معارضتهم لهذه المقالات – والذى قال عنهم هيوم قبل نشر مقالاته "أنهم الشباب الذين تبنوا آراء تواجه مبدأ العقد الأصلى ، حزب الهويج(*) وآخرين معارضيّن للسلطة المطلقة التى يؤيدها حزب التورى Tory(*) ، ثم هؤلاء المعارضين للخلافة البروتستاينية وأعتقد أننى كنت شخصاً يعتمد عليه قبل تشييد هذه الخلافة التى اضطرت العائلة أن تلتزم بها سواء أكان من حيث مزاياها أو عيوبها ، وفى الحقيقة أن المقالة التى كتبت عن الخلافة البروتستاينية لم تنشر إلا فى عام 1752 وحل محلها مقالة أخرى نشرها عام 1748 فى الشخصيات القومية National Characters ، لم يكن هيوم مناصراً لآل ستيوارت لكنه وضع كتيباً دافع فيه عن

(*) حزب الهويج Whig (حزب مؤيد للإصلاح عُرف فيما بعد بحزب الأحرار) – المترجم .

(*) حزب التورى Tory (حزب مؤيد للسلطة الملكية وهو الحزب الذى يدعى اليوم (حزب المحافظين) – المترجم .

obeikandi.com

صديقه اللورد بروفست ستيوارت الذى استدعته المحكمة عام 1747 لسماع التهمة الموجهة إليه بأنه قام بتسليم إدنبره للمتمردين إلا أنه بسبب الخوف والجبن Timidity من جانب من يقومون بالطباعة ، تم نشر الكتيب بعد تبرئة ستيوارت .

لم يستفد هيوم من رغبته فى التصالح والتسوية فيما يخص عضويته للتدريس بأى شئ ذلك لأنه قد تم طرده فى أبريل عام 1746 وله ربع مرتب ونجح فى الحصول عليه بعد خمسة عشر عاماً تقريباً .

وقد فكر فى العودة إلى بيته فى اسكتلندا مع شعوره بالحزن والوحدة دون أمه التى مع أسفه الشديد كانت قد وافتها المنية قبل ذلك بعام ، لكن منعه من ذلك أن عرضاً قدمه له الجنرال سانت كلير بواسطة أحد أقربائه ليعمل سكرتيراً له فى رحلة طويلة ، كان قد تم تعيين الجنرال ، إلى كندا بقصد مساعدة المستعمرين الإنجليز فى طرد الفرنسيين منها ، وبينما كانت السفينة المبحرة تنتظر فى ميناء بورت سموث ترقباً لحدوث ريحاً مواتية ترقى هيوم فى وظيفته كسكرتير ليكون بمنصب مستشار لكافة القوى العسكرية تحت إمرة السانت كلير ، ولم تصبح الرياح مواتية أبداً وغيرت السفينة وجهتها إلى بريتانى Brittany حيث فشلت فى ضم مدينة لوريانت Lorient وخرجت عن الحصار فى اللحظة نفسها التى كان الفرنسيون يقررون فيها الاستسلام، وعادت السفينة إلى انجلترا دون أن تحقق أى شئ يذكر ، وقد بدا أن الجنرال سانت كلير على أنه غير محظوظ أكثر من كونه

مذنباً ، وسلوكه الخاص فى الرحلة تم الدفاع عنه فيما بعد عن طريق ما كتبه هيوم ضد سخرية واستهزاء فولتير ، وكان على هيوم مرة أخرى أن ينتظر عدة سنوات قبل أن يستخرج من الحكومة الأجر المستحق له كمستشار ، وبعد أن تم إيقاف الرحلة عاد هيوم بسرعة إلى نانيويلس ، لكنه عاد فى بداية عام 1747 إلى لندن بعد أن قبل دعوة من الجنرال بأن يخدم كأحد معاونيه فى سفارته العسكرية فى فيّنا وتورين ، وقد ارتدى زى ضابط ، ولم يصبح فى الواقع كذلك ، وطبقاً لشهادة شاب تتسم بالسخرية وعدم الاحترام : إن بدانة جسده أكثر تلاؤماً لتعبر بوضوح عن أنه آكل للسلاحف وليس فيلسوفاً خالصاً .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن الملاحظ نفسه كان فخوراً بمعرفته بهيوم، بيد أنه كان متعجباً من التفاوت بين قدراته العقلية الرائعة وبين عدم هدوئه ، وسخر من قدرته على الاحتفاظ باللهجة الاسكتلندية السوقية سواء أكان عند التحدث باللغة الإنجليزية أو اللغة الفرنسية ، ظل هيوم بمدينة تورين حتى نهاية عام 1748 لذلك فهو لم يكن موجوداً فى انجلترا أثناء نشر المقالات الثلاث فى الكتاب الأول (بحث) ، وأثناء الإصدار الجديد لمقالاته الأخلاقية والسياسية والتى كانت أساس لشهرته الأدبية ، لقد تركت هذه المقالات انطباعاً عميقاً لدى الكاتب الفرنسى الكبير – مونتسيكو Montesquieu – بعد أن قرأها وأرسل لهيوم نسخة من كتابه روح القوانين ظل الرجلان يتراسلان السبع سنين الباقية من حياة منتسكيو .

وقد أدرك هيوم فى بطأ أن التيار تحول لصالحه ، على الأقل لو أننا سنصدق سيرته الذاتية التى تحدث فيها عن إماتته لنفسه حال عودته لإنجلترا إذ وجد أن مؤلفه (بحث) أو (مقالاته) التى نشرها لم يحقق أيا منها أى نجاح لافت للانتباه ، إلا أن ذلك لم يثبط عزيمته ، بل كان حافزاً لتحقيق طموحه الأدبى ، فاستكمل بعد عودته إلى نانيويلس – عام 1751 مؤلفه (بحث فى مبادئ الأخلاق) وقد وضع هذا المُؤلف ليحل محل الكتاب الثالث فى مؤلفه (رسالة) الذى كان يعتبره أفضل مؤلفاته التاريخية والفلسفية أو الأدبية على الإطلاق (D236) ثم نشر هيوم فى السنة التالية مقالاته السياسية ، وأثناء هذه الفترة أيضاً بدأ يكتب (محاورات فى الدين الطبيعى) ، وأنهمك فى كتابة مؤلفه (تاريخ انجلترا) ، وفى الوقت نفسه – بدأ عمله يجذب انتباه النقاد ، لقد قال هيوم أن ردود رجال الدين الموقرين وردود موقرين آخرين تأتى مرتين أو ثلاث سنوياً (D235) ، ولكن هيوم حافظ على تصميمه بألا يرد على انتقادات أى شخص مهما كان شأنه – هذا العداء لم يمتد إلى الجزء الأكبر من المقالات السياسية ، إلا أنها لم تفلت من وضعها فى قائمة الكتب الممنوع قراءتها على الكاثوليك من قبل السلطات الكاثوليكية الرومانية مع كل أعمال هيوم الأخرى وذلك فى عام 1761 .

لقد وصف هيوم المقالات بأنها العمل الوحيد الذى نجح فى أول عملية نشر له ، وكانت أربع منها مقالات سياسية بحتة ، وواحدة فى

الازدحام السكانى فى العالم القديم والحديث ، والمقالات السبع الأخيرة كانت إسهامات فيما يسمى الآن بعلم الاقتصاد .

لقد كان هيوم محامياً صارماً عن التجارة الحرة ومقالاته – إلى حد ما . كانت تنبئ بالنظرية التى طورها صديقه الشاب أدم سميث Adam Smith فى كتابه المشهور (ثروة الأمم) ، قرأ هيوم المجلد الأول منه وأعجب به وذلك قبل وفاته ببضعة شهور .

فى عام 1751 تزوج جون هوم ، وبنى ديفيد وأخته بيتا فى أدنبره متحركاً ناحية الترف لأن حظه تحسن ، وبعيداً عن مكاسبه المادية فوظيفته فى فيّنا وتورين جعلته صاحب ما يقرب من ألف جنية ، وكان دخل أخته ثلاثين جنيهاً فقط . وأضيف لدخله البالغ خمسين جنيهاً ، وعلى الرغم من أنه يتحدث عن الاقتصاد فى الإنفاق Frugality ، فقد عاش حياة اجتماعية مترفة ، وكان له أصدقاء كثيرون يقومون بتسليته ؛ من بينهم رجال الدين المعتدلون لكونهم تأكدوا من حسن ضيافته ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان مستعداً للسفر إلى جلاسجو لو كان قادراً على ضمان منصب الأستاذية فى المنطق الذى تخلى عنه أدم سميث عام 1752 بغرض الوصول إلى منصب الأستاذية فى فلسفة الأخلاق ، ولكن على الرغم من مساندة أدم سميث والأساتذة الآخرين له ، فقد منعت السلطة مرة أخرى تعيينه فى هذه الوظيفة بسبب معارضة المتعصبين .

كان هيوم – إلى حد ما – حزيناً بسبب عدم حصوله على هذا المنصب ، وتعيينه أميناً لمكتبة كلية الحقوق بأدنبره – كان المرتب أربعين جنيهاً فقط سنوياً رفضه هيوم بعد عام 1754 ، وعندها رفض أمناء المكتبة ذلك لأنهم غير مهذبين ، لم يتقاعد هيوم حتى عام 1757م ولكنه توصل إلى حل وسط فى الوقت نفسه بأن يعطى المال لصديقه بلاكلوك Blacklock الشاعر الأعمى – استفاد هيوم من هذه الوظيفة بأن المكتبة قد أمدته بالكتب التى يحتاجها لكتابه تاريخ انجلترا ، ويبدو أنه ظل على اتصال بالمكتبة حتى بعد أن استقال منها لصالح صديقه الفيلسوف أدم فيرجسون – المجلدات الست لكتاب هيوم فى التاريخ ، ظهرت بطريقة غير منتظمة ، المجلد الأول يتعلق (بأل ستيوارت) والذى يغطى فترة حكم جيمس الأول وشارل الأول ، والثانى أكمل القصة حتى سقوط جيمس الثانى ، وتم نشرهما عامى 1754 ، 1756 ، أتم كتابة مجلدين آخرين عام 1759 وكانا عن أسرة تيودور وتم نشرهما فى عام 1762 بعد أن أضاف مجلدين عن تاريخ انجلترا منذ غزو يوليوس قيصر إلى اعتلاء هنرى السابع العرش ، لقد سقط المجلد الأول جزئياً – فى البداية – بسبب محاولته أن يكون عادلاً فى موقفه فى النزاع الذى نشب بين الملك والبرلمان ، لقد أثار موقفه غضب الهويج من جانب ولم يرض التورى من جانب آخر ، ويبدو جزئياً أن ما حدث كان بسبب المؤامرة Conspiracy التى دخل فيها بائعو الكتب فى لندن ضد شركة إدنبره التى عهد هيوم إليها بنشر الكتاب ، لذا

وجدت الشركة مستحسناً لتحويل حقوقها إلى – أندرو ميللر – ناشر مؤلفات هيوم المعتاد والذى نشر فى – فترة تالية – المجلدات اللاحقة والتى كانت أكثر نجاحاً من الناحية النقدية والمادية ، وقد حصل هيوم على أكثر من ثلاثة آلاف جنيه عندما باع حق نشر هذه المجلدات ، والذى اعتبره معاصروه إنجازاً رائعاً ورأوا أن هيوم يعد مؤرخاً أكثر من كونه فيلسوفاً – وقد رأى فولتير أنه لا يمكن إضافة أى شئ إلى شهرة هذا التاريخ بل ربما يكون أفضل ما كتب فى أى لغة (M318) أما رأى ليتون ستراشى الذى ضمنه مقالته عن هيوم فى كتابه – أوصاف مختزله – بأنه رائع وذات أهمية واضحة ويجب أن يصنف على أنه فحص فلسفى بدلاً من كونه علاقة تاريخية ، وهو كتاب له علامة ، ولكن العلاقة التاريخية تستحق القراءة لفطنة هيوم وجمال أسلوبه .

أثناء نشر هيوم لكتابه (تاريخ انجلترا) وضع فى عام 1757 مجلداً يتضمن مقالات أخرى بعنوان (أربع مقالات) أهمها التاريخ الطبيعى للدين The Natural History of Religion ، والثانية (فى العواطف) التى كانت تلخيصاً وتنقيحاً للكتاب الثانى فى (الرسالة) والمقالة الثالثة فى (المأساة) Tragedy ، والرابعة (فى مستوى التذوق) – والمقالة الأخيرة حلت محل مقالته (فى الهندسة والفلسفة الطبيعية) ، فلقد أقنعه صديقه العالم الرياضى لورد ستناهوبى بالعدول عن نشرها ، وحيث إن هيوم كان يكره المقال الرياضى ، فقد (خطط) لأن يضيف خمس مقالات إلى المقالات التى أشرت إليها – إحداها (فى الانتحار)

Suicide ، وأخرى (فى خلود النفس) The Immortality of the Soul ، لكن ناشر كتبه – ميللر – كان خائفاً من العواقب لإساءتهما إلى الدين ، لذا تراجع هيوم عن نشرهما ومع ذلك فإن نسخاً من هذه المخطوطات تم تداولها سراً ، وقد ظهرت نصوص من هذه المقالات التى لم يتم إجازة نشرها على الإطلاق فى عام 1777 وفى عام 1783 ، وقد أدرجت فى المجلد الثانى الذى كان يحمل عنوان (مقالات غير منشورة) (طبعة جرين وجروس – عام 1875) فى عام 1758 ومرة أخرى فى عام 1761 ذهب هيوم إلى لندن ليرى مدى استمرار ذيوع كتاب (تاريخ انجلترا) بواسطة الصحافة – فى المرة الأولى – ظل هناك لأكثر من عام وأصبحت لديه أفكار جادة للاستقرار فى لندن قبل أن يتخذ قراراً بأنه يفضل مناخ أدنبره ، لقد لاقى هيوم ترحيبا فى المجتمع الراقى والدوائر الأدبية ، وعلى الرغم من أن بوسويل Bosuell أخبر الدكتور/ جونسون بأنه ترك الشركة عندما علم أن هيوم ارتبط بها ، إلا أن مقت جونسون لهيوم لم يمنعهما من أن يكونا ضيفين على عشاء القسيس الملكى Poyal Chaplain دون أن يدخلا فى صدام مباشر .

استغل هيوم نفوذه وتأثيره على ميللر ليضمن بيع كتاب (تاريخ اسكتلندا) الذى كتبه صديقه المبجل وليام روبرتسون William Robertson حتى لو كان هناك أذى سيلحق بعمله ، لقد غضب هيوم عندما تم تفضيل روبرتسون عليه وذلك بتعيينه مؤرخ ملكى بدلاً منه – فى نهاية حرب السبع سنين عام 1763 عُين الإيرل هيرتفورد ابن عم

هوراس والبول سفيراً لبريطانيا فى فرنسا ، وقد زود بسكرتير لم يكن موضع قبول من هيرتفورد ، لذا قرر أن يجعل هيوم سكرتيراً شخصياً له على الرغم من أنه لم يره من قبل ، كان هذا الاختيار مدعاة للدهشة حيث أنه كان ورعاً جداً ، وتم ترشيح هيوم له لأن له مكانة مرموقة فى فرنسا ، رفض هيوم العرض فى البداية ثم قبله بعد ذلك ، لقد ترك اللورد هيرتفورد والليدى زوجته انطباعاً جيداً لدى هيوم عندما التقى بهما فى لندن ، وفى شهر أكتوبر عام 1763 صاحبهما إلى باريس ، ومنذ اللحظة الأولى لوصوله إلى باريس حقق هيوم نجاحاً اجتماعياً رائعاً والذى عبر عنه ليتون ستراشى (بأن الأمراء مدحوه والسيدات بجلوه ، وتم معاملته ككاهن من قِبل الفلاسفة) وكان الفلاسفة الموسوعيون من بين أصدقائه المقربين منهم ديدور ودلمبرت – هناك قصة تتعلق بحفل العشاء الذى دعى إليه هيوم من قبل هولباخ حيث قال الأخير : إننى لم يسبق لى أن التقيت بملحد ثم أخبره هولباخ ، بأنه يوجد خمسة عشر شخصاً من الحاضرين فى حفل العشاء ملحدين والثلاثة الآخرين يفكرون فى الأمر ، كانت الكونتيسة دى بوفلير المعجبة الرئيسة بهيوم والتى عرفته بنفسها عن طريق خطاب أرسلته له عام 1761 ، وكانت تصغره بأربعة عشر عاماً وهى عشيقة أمير دى كونتى التى فقدت الأمل فى الزواج منه بعد وفاة زوجها ، وعلى الرغم من أنها لم تتخل أبداً على حبها الأول فقد كانت تحب هيوم وتجاوبهما مع بعضهما دليل على أنه كان يحبها ، على الرغم من أنهما لم يتقابلا مرة أخرى

بعد أن غادر هيوم باريس فى شهر يناير عام 1766 ، فقد ظلا يتراسلان لمدة عشر سنوات ، وفى خطابه الأخير لها (كان يواسيها فيه لوفاة أمير دى كونتى) قائلاً عن نفسه (أرى الموت يقترب تدريجياً ، إلا أننى لا أشعر بالقلق أو الحسرة، أرسل إليك تحياتى وأشواقى للمرة الأخيرة). وهذا الخطاب كتبه فى الأسبوع الذى وافته فيه المنية ، عندما غادر هيوم باريس اصطحب معه جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau (1712- 1778) كان روسو يعيش فى سويسرا ، إلا أن آرائه الدينية التى تعارضت مع آراء رجال الدين جعلت له أعداء هناك – ولم يستطع أن يعتمد على كونه لا يشعر بالقلق فى فرنسا – لقد أقنعت مدام دى فيرديلين De Verdelin صديقة هيوم بأن يضطلع الأخير بمسئولية حماية روسو ، على الرغم من أن الفلاسفة حذروا هيوم منه لأنه لا يمكن الوثوق فيه – خادمة روسو الجاهلة (يتريز لافاسير) التى صاحبت بوسويل الذى أغواها فى الطريق ، مضت الأمور فى البداية على خير وجه ، فكانت مشاعر المودة والتقدير المتبادل تجمع بين هيوم وروسو ، لاقى روسو مشكلة فى الحصول على مكان يقيم فيه ، لذلك قُبل عرض من الثرى ريتشارد دافينبورت بأن يقيم فى منزل فى ستافاردشاير بإيجار رخيص ، لقد خطط هيوم أيضاً للحصول على منحة قدرها مائتى جنيه من الملك جورج الثالث – إلا أن روسو أصيب بجنون الاضطهاد Paranja – كتب هوراس والبول نقداً لاذعاً ضده والذى نسبه روسو لهيوم ، كما كانت هناك نكات عن روسو فى الصحافة

الإنجليزية ، لقد سببت تيريز الأذى لروسو – أصبح روسو مقتنعاً بأن هيوم انضم للفلاسفة للتآمر ضده ، لقد رفض منحة الملك ، وأصبح يشك أيضاً فى السيد دافينبورت وكتب خطابات لاذعة لأصدقائه فى فرنسا وللصحف الإنجليزية ولهيوم نفسه ، حاول هيوم أن يقنع روسو ببراءته .

وعندما فشل أصبح قلقاً على سمعته ، أرسل هيوم خطاباً إلى دالمبرت شرح فيه الأمر كله لكى ينشره لو كان ملائماً وقد نشره دالمبرت مع الخطابات التى شكلت الدليل الأساسى والترجمة الإنجليزية لكتيب دالمبرت ظهرت بعد بضعة أشهر ، ظل روسو فى انجلترا حتى ربيع عام 1767 ودون أن يخبر السيد دافينبورت رجع مع تيريز إلى فرنسا بشكل مفاجئ ، مما لا شك فيه أن روسو تصرف بطريقة سيئة مع هيوم، لكن بعض أصدقاء هيوم رأوا بأنه يجب أن يسلم بأن روسو يعانى من جنون الاضطهاد ، وأنه سيكون موضع تبجيل لهيوم بألا يعلن ذلك رغم خصومة روسو له ، لبضعة شهور فى عام 1765 أثناء الفترة الفاصلة بين رحيل اللورد هيرتفورد لأيرلندا والذى عين فيها ضابط بوصول خليفته، وكان هيوم مسئولاً عن شئون باريس لبراعته وكفاءته الدبلوماسية ، رفض هيوم دعوة اللورد هيرتفورد ليخدم معه فى أيرلندا ، لكنه فى عام 1767 قبل عرض سكرتير الدولة (الجنرال كونواى – وهو – شقيق اللورد هيرتفورد) ليخدم كسكرتير تحت التدريب للقسم الشمالى ، نفذ هيوم واجباته الوظيفية بنجاح لعامين تاليين ، بعدها عاد

هيوم إلى أدنبره عام 1769 ، وقد أصبح ثرياً – إلى حد بعيد – إذ كان دخله ألف جنيه سنوياً ، بنى هيوم بيتاً له فى المدينة الجديدة فى شارع متفرع من ميدان القديس اندرو ، وقد أطلق عليه شارع القديس ديفيد تخليدا له ، استهل هيوم حياته الاجتماعية بنشاط غير مكترث بالهجمات العديدة التى شنت ضد فلسفته وشغل نفسه بمراجعة مؤلفه (محاورات فى الدين الطبيعى) ، وقد نشر على الأرجح بعد وفاته بواسطة ابن أخيه عام 1779 – فى ربيع عام 1775 قال هيوم لقد أصبت باضطراب فى الأمعاء الذى لا يحمل إنذار بالخطر ، لكن أدركت – فيما بعد – بأنه مرض عضال مميت (D239) – لقد عانى من ألم ضئيل (وليس مصاً لروحى) وعلى نحو متميز تطفل بوسويل عليه ليرى كيف يواجه مشهد الموت ، وعلى نحو مميز أيضاً أصر الدكتور/ جونسون على رأيه بأن هيوم يكذب .

فارق هيوم الحياة يوم 25 أغسطس عام 1776 ، تُثبت حياة هيوم المتعددة الجوانب صدق وصفه لنفسه أننى رجل دمث الطباع مسيطراً على أعصابى ، منفتح اجتماعياً ، مرح ، قادر على المودة ، تقل قابليتى للعداوة ، وعلى قدر كبير من الاعتدال فى جميع عواطفى . (D239)

مما لا شك فيه أن أدم سميث كان صادقاً عندما استنتج وصفا لصديقه هيوم والذى عبر عنه بقوله : لقد اعتبرته دائماً فى حياته ، وبعد أن فارق الحياة رجلاً حكيماً وفاضلاً وربما سيعترف البشر بذلك .